تعليق وتقيب

تحدثنا عن صحف الأغاني في المدينة ومكة وما ارتبط بها في العصر الأموي من لهو وترف وغناء. وليس معنى ذلك أن المدينة ومكة لم يكن بهما في ذلك العصر سوى هذه الصحف، فقد كانت هناك صحف أخرى بأيدى كرام بررة كانت كل خطوطها وألوانها زهداً وورعة وتقوى وعبادة.

كانت المدينة ومكة إذن دارين للزهد والعبادة، كما كانتا دارين للغناء وما يدمج فيه. ومن يتصفح طبقات ابن سعد يجد كثرة غامرة من العباد والنساك عاشوا فيهما في أثناء العصر. وكان على راس هؤلاء النساك والعباد عبد الله بن عمر المتوفى سنة ٧٣ للهجرة، وكان يرفض الحياة المترفة ويتخذ لنفسه حياة زاهدة، وصؤر ذلك ابن سعد في طبقاته تصويراً طريفا، فذكر عنه أنه كان يترك الحمام يعده من رقيق العيش، وقال إنه لم يكن يلبس الخز، ولا كان يشرب في أقداح مفضضة ولا من قوارير وإنما كان يشرب في أقداح من عيدان، ولم يتوضأ في الضفر (النحاس)، وإنما كان يتوضأ في أقداح الخشب، ولم يكن يستخدم الطيب، وكان يكسر النرد. وروى ابن سعد أنه أعجب يوماً بجارية عنده فأعتقها، وزوجها مولى له، كما روى أنه كان مرتحلاً، فسمع صوت زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل براحلته عن الطريق[١].

ولم يكن ابن عمر وحده هو الذي يتخذ لنفسه حياة خشنة زاهدة، بل كان هناك كثيرون يحيون حياته مثل أبى هريرة، وكان يقول ما وجع أحب إلى من الحمى لأنها تعطى كل مفصل قسطه من الوجع، وإن الله يعطى كل مفصل قسطه من الأخر [٢]، ومر بمروان بن الحكم وهو يبنى داره فقال: ابن شديداًوأمل بعيداً، وعش قليلاً، كل خضماً، والموعد الله [١]وبجانب ألى هريرة وابن عمر نجد كثيرين من الصحابة والتابعين يختارون لأنفسهم هذه الحياة الزاهدة.

ولم يكن الزهد أغرب ما في حياة هذه الجماعة، بل كان النسك والعبادة والخوف من الله وخشية لقائه روى الرواة عن أبى هريرة أنه بكى في مرض موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال:

---

[1] أنظر ترجمة عبد الله بن عمر فى طبقات ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٥ وما بعدها.

[2] ابن سعد الجزء الربع القسم الثاني ص ٦١.

[1] البيان والتبين ١٧٢/٣ والخضم: الأكل بجميع الفم.

أما إنى لا أبكى على دنياكم هذه ولكنى أبكى لبعد سفرى وقلة زادى، أصبحت في صعود مهبطة على جنة ونار، فلا أدرى إلى أيهما يسلك بى [٢] ووراء أبى هريرة وجدت جماعة من البكائين الذين يبكون ليل نهار[٣]، كما وجدن جماعة عاهدت الله أن تصوم الدهر مثل عبد الله بن حنظلة الذي كان يبيت في المسجد، وما كان يزيد على شربة من ستويق يفطر عليها إلى مثلها من الغد يوتى بها في المسجد، وكان يصوم الدهر وما رئى رافعاً رأسه إلى السماء إخباتا[٤].

وكما كان هناك جماعة من الصؤامين أمثال ابن حنظلة كان هناك جماعة عاهدوا الله ألا يشهد الليل عليهم بنوم أبداً؟ فهم يصلون، وهم يكثرون من ألصلاة، حتى ليصلى بعضهم ألف ركعة، على نحو ماكان يصنع على بن الحسين، وقد حج خمسا وعشرين حجة [٥] راجلاً. وكان من هؤلاء المصلين المكثرين من يلقب بالراهب لكثرة صلاته وعبادته [٦] وكان منهم من يسجد فيطيل في سجوده حتى إن العصافير لتسقط على ظهره تحسبه حائطا، واشتهر بذلك محمد [٧] بن طلحة بن عبيد الله.

ويخيل إلى الإنسان أن هؤلاء العباد خرجوا عن دنياهم وعن كل ما يتصل بها حتى لقد يرث الشخص منهم ميراثا، فيفرقه في الناس؟ كما صنع ابن عمر، وكما صنع عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد باع أرضأ ورثها بثمانين الفاً، وأنفقها في سبيل الله، فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا، قال: أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله؟ وأجعل الله ذخرا لولدى[٨]

وفى كتب الأدب والتاريخ قصص كثير يروى عن عباد المدينة ومكة ونساكهما، فمن ذلك أن سالم بن عبد الله بن عمر دخل مع هشام بن عبد الملك البيت فقال له هشام: سلنى حاجتك

---

[2] بن سعد الجزء الرابع القسم الثاني ص ٦٢.

[3] البيان والتبين٣/١٥١ ومما بعدها.

[4] ابن سعد ٤٨/٥.

[5] ابن عبد ربه ٣٦٩/١.

[6] بن سعد ١٥٣/٥.

[7] لحيوان للجاحظ طبع الحلي ٢٣٨/٥.

[8] البيان والتبين ١٤٦/٣.

فقال له؟ أكره أن أسأل في بيت الله غير الله [١] ومن ذلك ما يروى عن الزهري من أنه قارف ذنباً فاستوحش من الناس وهام على وجهه، فقال زيد بن على بن الحسين له: يازهرى لقنوطك من رحمة اللهالتيوسعت كل شيء أشد عليك من ذنبك، فقال الزهري: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ورجع إلى أهله وماله وأصحابه [٢]

ولم يقف نسك هذه الجماعة عند نفسها، فقد تجردت منهم طائفة لوعظ الناس، وكان على رأسها القصاص الذين يقصون في المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد بدأ القصص في المدينة تميم الدارى في عهد عمر[٣]، وإستمر بعده، واشتهرت جماعة به في العصرالأموى مثل عبيد ابن عميروكان يجلس إليه عبد الله بن عمر فكانت عيناه تهرقان بالدموع[٤]. ومن مشاهير القصاص مسلم بن جندب، وهو من قراء المدينة، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: من سره أن يقرأ القرآن غضاً فليقرأه على قراءة مسلم بن جندب[٥] ولعل أهم واعظ عرفته المدينة ومكة في العصر الأموي هو أبو حازم الأعرج وكان يقول: " نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لانتوب حتى.نموت [٦]".

وليس هذا كل مايلاحظ في المدينتن المقدستين، فقد يكون الشخص عابداً ناسكاً ويقدر الغناء ويقدر النسيب والغزل على نحو ما مر بنا عند أبى السائب المخزومي، وتقدم أنه كان يصلى في اليوم والليلة ألف ركعة، ومع ذلك كان يشغف بالغزل والغناء شغفاً شديداً، وكأنهم لم يجدوا في الغناء والغزل من حيث هما إثماً ولا ما يشبه الإثم، وهما:فى الواقع لايكونان اثماً والا اذا اقترنا بما يخرجهما إلى ذك روى المبرد أن مدنيا كان يصلى منذ طلعت الشمس إلى أن قارب النهار أن ينتصف ومن ورائه رجل يتغنى وهما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا رجل من الشرط قد قبض على المغنى، فقال: أترفع عقيرتك بالغناء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذه فانفتل المدنى من صلاته، فلم يزل يطلب إليه فيه حتى استنقذه، ثم أقبل عليه فقال:أتدري لما شفعت فيك؟ " فقال: لا والله ولكن إخالك رحمتنى قال: إذن فلا

---

[1] البيان والتبين ١٢٧/٣.

[2] المصدر نفسه ١٦٨/٣.

[3] الإصابة لابن حجر (طبع مطبعة السعادة) ١٩١/١.

[4] بن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٩.

[5] طبقات القراء لابن الجزرى طغ برجشتراسر ٢٩٧/٢.

[6] البيان والتبين ١٦٤/٣ وفى مواضع متفرقة وابن عبد ربه ٣٦٩/١ ومابعدها.

رحمنى الله قال: أ فأحسبك عرفت قرابة بيننا قال: " إذن فقطعها الله "، قال: فليد تقدمت منى إليك"، قال. " لأ والله ولا عرفتك قبلها قال: " فخبرنى!، قال: " لأنى سمعتك غنيت آنفأ، فأقمت واوات معبد، أما والله لو أسأت التأدية لكنت أحد الأعوان عليك [١] ".

ولم يكتف عباد المدينة ومكة بهذه المشاركة البعيدة عى استحسان الغناء وأصواته، بل لقد كان منهم من شارك في شعر النسيب والغزل كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي، ولعل في هخذا كله ما يتيح لنا أن نزعم أن المدينة ومكة كانتا حقا في العصر الأموي، تجمعان أروع صور الزهد والورع مع صور الغناء والغزل.

---

[1] الكامل للمبرد (طبع اور با) ٣٩٤/١.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

في الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

في تاريخ الأدب العربي

* العصر الجاهلي
الطبعة الثالثة عشرة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامي
الطبعة الثالثة عشرة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسي الأول
الطبعة الحادية عشر ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسي الثاني
الطبعة السابعة ٦٥٧ صفحة
* عصر الدول والإمارات
(الشام) الطبعة الثانية، ٣٥٦ صفحة
* عصر الدول والإمارات
(مصر) الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة.
* عصر الدول والإمارات
(الأندلس) الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة
* عصر الدول والإمارات.
(ليبيا . تونس . صقلية)
الطبعة الأولي، ٤٤٦ صفحة.
(مصر) الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة.

في مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة

* دراسات في الشعر العربي المعاصر.
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
* التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة الثامنة، ٣٤٠ صفحة
* شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثانية عشرة، ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
* البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة، ٢٣٢ صفحة
* الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
الطبعة الرابعة ، ٣٣٦ صفحة

البحث الأدبي:

طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره
الطبعة السادسة، ٢٧٨ صفحة.
*الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور.
الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة
* في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى، ٢٧٨ صفحة

في الدراسات النقدية

في النقد الأدبي

الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة

فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨

في الدراسات البلاغية واللغوية

البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة الثامنة ٣٨٠

المدارس النحوية

الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

تجديد النحو

الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة

تيسير النحو التعليمي قديما وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

* الرثاء

الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة

* المقامة

الطبعة الخامسة، ١٠٨ صفحات

* النقد

الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة.

الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

* في التراث المحقق

* المغرب في حلي المغرب لابن سعيد

الجزء الأول . الطبعة الثالثة، ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني . الطبعة الثالثة، ٥٧٢صفحة

كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة

*الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر.

الطبعة الثانية، ٣٥٦ صفحة

في سلسلة "اقرأ"			
* مع العقاد	الطبعة الخامسة	* معي (١)	الطبعة الثانية
* البطولة في الشعر العربي	الطبعة الثانية	* معي (٢)	الطبعة الأولى
* الفكاهة في مصر	الطبعة الثالثة		